حيرة الأدب المصرى

بقلم الكاتب الكبير
الاستاذ عبد العزيز البشرى

الاستاذ البشرى ، من أساطين الادب العربى ، وحملة لوائه المبرزين دون ريب ، ذو أسلوب أخاذ ، قل أن يباريه فيه ، وطريقته فى الكتابة تصعب على من رامها وتطول ، على أنه فوق هذا كله ، من أولئك القليلين ، الذين لا يحبون الطنطنة ، أو يميلون الى الزهو والافتخار ، وتلك شيمة العظماء وما أقلهم فى هذا العصر الذي نعيش فيه .
المحرر

قبل أن أخوض فى هذا الحديث الذى يستشرف له القلم اليوم ، أقرر ، ولعلى أفعل للمرة العاشرة ، أننى بالذات — على كثرما قرأت للمتقدمين والمحدثين — أننى لم أقع للأدب على تعريف جامع مانع ، على تعبير أصحاب المنطق . لا أدرى إن كان الفرنج قد عرفوا الأدب ، على هذا الحد أم لم يعرفوه ؟ فانى إذا تحدثت عن الأدب ، فانى إنما أتحدث عن الأدب الذى ألمحه ، وهو الذى خرج فى لسان العرب .

ومهما يكن من شىء ، فانى بالذات لم أقع ، كما قلت ، على تعريف يجمع حدود الأدب ، ويدفع عنه ماليس منه ... ولقد أهبت مراراً بأعلام البيان وأئمة المتأدبين أن يعرفوا لنا الأدب أو يدلونا على مواضع التعريفات الصحيحة له ، فأمسكوا ولم تتدل أقلامهم بجواب .

وعلى كل حال ، فان الأدب إذا لم يضبطه تعريف جامع مانع ، فان موضوعه واضح فى مظاهره ، وفى الغايات التى يطلبها ويتطاول إليها . فما من أحد إلا يرى أن أبلغ مظاهر الأدب فى نفض الأحساس الكامنة ، والعواطف الجائشة ، وتصوير مايعتلج فى أطواء النفس من ألوان الانفعالات بعبارات موسيقية تتدسس إلى نفس السامع فتثير منها كل مايثور فى نفس الشاعر أو الكاتب ، ولا شك عندى فى أن هذا أبلغ مظاهر الأدب وأجل غاياته .

وأخرج من هذا إلى أن الطبيعة البشرية وإن كانت ، على وجه عام ، واحدة فى الناس ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، إلا أن لكل اناس على ظهر الأرض أخلاقهم وصفاتهم ، وأسلوب تفكيرهم ، وتصورهم للأشياء ، وتقديرهم لها ، ثم أذواقهم ، وألوان عواطفهم وما يثيرها من فنون العوامل .

ذلك بأن لكل قوم أصلهم وتاريخهم ، ورقعة بلادهم ، ومناظر أرضهم وسمائهم ، وما درجوا عليه من أخلاق مطبوعة وعادات موروثة ، وأحداث مأثورة ، وغير ذلك مما يطبع كل أمة على غرار خاص ، ويجليها فى شخصية تغاير ماعداها من شخصيات الأمم الأخرى . وما من

فكرة تتحرك فى العقل ، أو عاطفة تعتلج فى النفس ، أو خيال يخلق فى الذهن ، إلا وهو مستمد من حقيقة واقعة أدركها الانسان باحدى حواسه الخمس . اما ان يختلق الذهن مالا يتكىء على حقيقة واقعة ، فذلك ضرب من المستحيل . وإذا بهرك أن الخيال لقد يخلق من الصور مالم تقع عليه عين أو تتصل به أذن ، فاعلم انه ملفق لا اكثر ولا اقل : ملفق صورته من أجزاء يرجع كل منها إلى حقيقة يقع عليها الحس.

وبعد ، فانما نحن فى تفكيرنا وتصورنا وما يحوك فى انفسنا من ألوان العواطف ، وما تتعلق به اذهاننا من فنون الأخيلة ، إنما نترجم عن تاريخنا ، وعاداتنا ، وبيئتنا ، ومناظر بلادنا ، وغير أولئك من العناصر التى طبعتنا امة واحدة. هذا هو الشأن الذى ينبغى ان يكون لكل امة ، وعلى هذا ينبغى ان يكون الأدب فى كل امة .

وإنك — على تقارب اللغات الغربية وتكافئها فى المدنية ، وتوافى بعضها لبعض فى اسباب الحضارة — إنك مع هذا لتسمع بالأدب الفرنسى ، والأدب الانجليزى ، والأدب الألمانى ، والأدب الروسى ، وغير ذلك ، كما تسمع بالأدب العربى : ذلك بأن العلوم والصناعات وما إليها ، امور يمكن ان تتقارضها الأمم. اما الأذواق وخلجات النفوس ونزوات العواطف ، فما لا يقع عليه التقارض والاعارة ، وإن جاز لأمة ان تقلد اخرى وتحذو حذوها فى طريقة الأداء واساليب الاستقراء والتحليل ، وليس معنى ذلك تحويل الأذواق او تلوين العواطف !

* * *

نعود بعد كل ذلك إلى ادبنا — نحن المصريين — ونقبل على انفسنا بهذا السؤال: هل ما تتحرك فيه من الأدب اليوم يؤدى حقاً مطالب الأدب التى سلف عليها الكلام ؟ وبعبارة اخرى هل الأدب الذى نعالجه اليوم مؤد حق الأداء لما يعتلج فى نفوسنا من العواطف ، وما يجيش فيها من فنون الأحساس ؟ او بعبارة ثالثة : هل نحن نترجم اليوم بهذا الأدب عما ينبغى ان يمليه علينا تاريخنا وطبيعتنا ، واخلاقنا ، وعاداتنا ، ومناظر بلادنا ، وما جازينا من أحداث ؟ وعلى الجملة هل نترجم حقاً عما تقتضينا جميع اسبابنا فى الحياة ؟ .

لا شك فى ان اول ما يخطر على القلب فى سبيل الاجابة عن هذا السؤال ، او هذه الأسئلة ، هو استعراض مظاهر الأدب القائم اليوم ، وتقرى صوره والوانه ، وتحرى مطالبه وغاياته ، لنعرف اين يقع من مطالب الأدب التى تقدم فيها القول .

والواقع انه مهما اختلفت لهجات المتعاصرين من الأدباء فى اية امة من الأمم ، وتغايرت اساليبهم فى فنون البيان : شعراً كان او نثراً ، فانك — ولا ريب — واجد لمجموعهم طابعاً خاصاً يدل على عصرهم ويميزهم عن غيرهم ، بحيث يتهيأ للناقد الخبير ان يستدل من نص البيان على العصر الذى انتضح فيه دون ان يضاف بأية إشارة إليه. ولكنك لا تستطيع ان تجد اليوم هذا الطابع للأدب

فى مصر، وتستطيع ان تزعم مثل هذا عن الأدب فى الشام . ونقصر الكلام على الأدب المصرى ففيه سقنا الحديث .

عندنا شعراء عظام ، وكذلك عندنا كتاب عظام ، على انك حين تبلو آثارهم ، وتقلب النظر فى الوان بلاغاتهم لا تصدق، لولا انك تعيش فيهم ، أنه يجمعهم عصر واحد فى امة واحدة ! وليس هذا التبلبل مقصورا على اساليب البيان ونسج الكلام والملائمة بين الألفاظ، بل إنه ليتعدى هذا إلى الأغراض والمطالب، وطريقة نفض العواطف الباطنة وبزل الثروات الكامنة .

هذا شاعر فحل لا يرى الشعر يجود ، بل لا يرى فيه شعراً البتة إلا إذا خرج فى كلام جزل ، وتحرى الاتيان فيه بغريب اللفظ وشامسه ، وحسبه من المطالب الوقوف بالديار ، والبكاء على النؤى والأحجار ، والتشبيب بهند ودعد ، والهتاف برضوى وسلع ، واطلع بك على مضارب القباب ، وما أجنت من عاتكة والرباب ، ووصف لك النياق وما صنع بها الوجيف فى الموامى حتى أتت أنقاضاً على أنقاض !

وهذا شاعر لا يرى الشعر إلا أن يكون الكلام جزلا سهلا ، متين الرصف ، متلاحم الأجزاء ، مشرق الديباجة ، واقعة أغراضه ومعانيه بعد ذلك حيث وقعت !

وهذا شاعر يعتصر ذهنه ، ويكد عصبه فى تصيد معنى جديد، والوقوع على تشبيه طريف الخ.

وهذا كاتب أجل همه تجويد العبارة وصقلها ، وتلقط ما جالت به أقلام السابقين من الألفاظ المشرقة والجمل النيرة لا يسوقها إلى معانى قائمة فى نفسه ، وإنما يسوقها لنفسها ، ولو استكره المعانى عليها استكراها!

وهذا أديب لا يراك حقيقاً بالبقاء فى هذا العالم إذا زل بك القلم فقلت «أثر عليه » ولم تقل « أثر فيه » أو قلت « الشماعة » ولم تقل « المشجب » أو قلت « غير مرة » ولم تقل « أكثر من مرة » الخ الخ — لا يراك كفؤا للحياة بله حمل القلم ، ولو لم يتعلق بغبارك فى العلم والأدب والبيان أحد !

وهؤلاء كتاب ، وجلتهم من ساداتنا أصحاب التجديد، لا يعجبهم كاتب عربى ، ولا فكر شرقى ، ولا شىء مما يتصل بأسبابنا باعتبارنا مصريى البيئة عربيى اللغة. ذلك بأنهم قرأوا شكسبير ، وبيرون ، وما كولى ، ودتى ، وفلان وفلان من تلك الأسماء التى تسكبها اقلامهم فى آذاننا كل يوم . ولقد يطلعون علينا بألوان من البيان لا ندركها لأنها لا تتصل منا بسبب ، ولقد يريدوننا على اتخاذ نماذج لألوان من البيان لا نفهمها ولا نستطيع فهمها ، ولا تذوقها فضلا عن أن نصنعها ونجودها لأن طبيعتنا غير طبيعة أصحابها ، وبيئتنا غير بيئتهم ، ولساننا غير لسانهم ، وكل شىء فينا مغاير لكل شىء فيهم !

(البقية على الصفحة رقم ١١٩٢)